**المحاضرة 08: المنهج الإثنوغرافي**

* **تمهيد:**

ظهر مصطلح الإثنوغرافيا في بريطانيا، والذي يعني البحوث الوصفية، والتحليلية التي قام بها علماء الأنتروبولوجيا البريطانيون حول الشعوب والأقوام البدائية التي دروسها دراسة ميدانية، وبالرغم من أن الإثنوغرافي يهتم بالدراسة الوصفية للمجتمعات البدائية، والأنتروبولوجي الاجتماعي يهتم بالتحليل البنائي أو التركيبي للمجتمعات البدائية فإن هناك ارتباطا وتداخلا وثيقا بين هذين العلمين بخصوص الدراسات العلمية التي يقوم بها كل على حدى.

وتعد الإثنوغرافيا من أقدم فروع المعرفة ضمن علم الأنتروبولوجيا، عندما قام الأوروبيون بوصف القبائل والشعوب المحلية، في أمريكا وإفريقيا واستراليا وآسيا، حيث وصفوا أدواتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وكل ما يتصل بثقافتهم المادية المختلفة، وسرعان ما تبنى الأنتروبولوجيون هذه المعلومات، واستخدموها في دراساتهم لتطوير المجتمع البشري، كما ساهم علم الآثار في تطوير هذا العلم، حيث استخدمت المعلومات الأثرية من المجتمعات البدائية والبسيطة والتقليدية لنماذج مجتمعات ما قبل التاريخ، والتاريخ القديم، وذلك عن طريق عقد المقارنات البسيطة، وحتى أسماء ووظائف الأدوات التي توجد في المواقع الأثرية حيث أخذت ما هو معروف لدى الشعوب البسيطة التي درسها ووصفها الإثنوغرافيون، وهكذا فإن استخدام الإثنوغرافيا في الآثار قديم قدم العلم نفسه.

1. **طبيعة المنهج الإثنوغرافي:**

يقصد بالمنهج الإثنوغرافي تلك الدراسة الميدانية العلمية للظواهر الاجتماعية، وذلك عن طريق اتصال الباحث الأنتروبولوجي بموضوع البحث اتصالا مباشرا يعيش فيه بين الجماعات المراد دراستها وتعلم لغة الأهلي لكي يوثق صلته بهم.

ويعد البحث الإثنوغرافي من البحوث النوعية التي حظيت بالاهتمام والنقاش، حيث بدأ التوسع الكبير في استخداماته خلال منتصف القرن الماضي، وقد عرّف هامرسلي واكسنون البحث الإثنوغرافي بأنه"منهجية بحث اجتماعي، يتميز بالانخراط العميق للباحث علنا أو خفية في حياة الناس لفترة من الزمن، يراقب ما يحدث ويسمع ما يقال، يسأل الأسئلة، ويجمع ما أمكن من بيانات بهدف تسليط الضوء على قضايا محورية في البحث".([[1]](#footnote-1))

والباحث الإثنوغرافي هو باحث من نوع "المشاهد المشارك" وبالتالي فإن البحث الإثنوغرافي يقع بين حدود البحث الكيفي السوسيولوجي لمجرد الفهم، وبين البحث الإجرائي الذي يهدف إلى الفهم والمشاركة في التغيير نحو الأفضل.

ويختلف البحث الإثنوغرافي عن الأبحاث الأخرى بمنهجيته وأهدافه فمن حيث المنهجية يقتضي البحث الإثنوغرافي قيام الباحث بمعايشة المجتمع موضوع البحث.

وما يميز البحث الإثنوغرافي عن بقية الأبحاث الكمية، هو عدم وجود فرضيات مسبقة، ومحاور صارمة للأسئلة التي تقود البحث، فإن هذا الوضع بحد ذاته غير مريح لدى الباحثين ويؤدي إلى بعض الإشكالات خصوصا في بداية البحث، وهذا ما يحصل مع كثير من الباحثين الإثنوغرافيين الذين لم تتبلور أسئلة الدراسة لديهم إلا بعد مرور فترة من الزمن، استطاعوا من خلالها التخلي عن كثير من الأفكار التي توقعوها قبل دخول الميدان، ولجئوا إلى أفكار أخرى شكلت محور اهتمامهم أثناء وجودهم في الميدان، ورغم ذلك فإن هذا لا يعفي الباحث من تحديد إطار عام وخطط عريضة تمكن من تحديد زاوية النظر للبحث.

1. **خطوات المنهج الإثنوغرافي:**

يتحدد المنهج الإثنوغرافي وفق خطوات ميدانية محددة، يطبقها الباحث الإثنوغرافي في سلسلة متتابعة للخروج ببحثه الميداني إلى الواقع ومنها نجد:

* **الملاحظة أو المشاهدة المباشرة:**

هي أحد الأساليب التي يستخدمها الباحث المقيم في دراسة الشعوب البدائية، ويقوم هذا الأسلوب على معاينة ومراقبة أفراد المجتمع الذي تجري عليه الدراسة، في أثناء تأدية أعمالهم اليومية المعتادة، وكذلك حضور المناسبات العامة لهذا المجتمع المدروسة كالحفلات والاجتماعات الدينية والشعبية وحلقات الرقص... وغيرها، ورصد الحركات والتصرفات، وتسجيل ما يجدر تسجيله من حوارات وأغان وتراتيل، وهذا يقتضي من الباحث الإثنوغرافي أن يقيم فترة لا تقل عن 8 أشهر في المجتمع المدروس،وفهم ما يدور فيه، فالباحث عليه أن يحسن لغة التخاطب بلغة الأهالي، حتى وان كان السلوك الذي يشاهده غير لفظين وهكذا يرى الباحث عناصر الحياة اليومية تتكرر مرات ومرات أمامه وتحتاج هذه الطريقة إلى أن يكون الباحث ملما بأهداف بحثه وبطبيعة المجموعة المدروسة، وان يتمتع بقدر كبير من الاهتمام والوعي بأبعاد بدقة وموضوعية، حيث يتوقف على ذلك صدق المعلومات وفائدتها العلمية. ([[2]](#footnote-2))

كما يتضمن هذا الأسلوب المنهجي، أسلوب **الملاحظة-المشاركة** وهي أعمق منهجيا من الملاحظة المباشرة، وقد ارتبط هذا الأسلوب بالأنتروبولوجي مالينوفسكي، إلى أن أصبحت عنصرا أساسيا في الدراسة الميدانية الإثنوغرافية، وقد دعا مالينوفسكي إلى إطالة الفترات الزمنية للدراسة الميدانية، حتى تتاح للباحث الأنتروبولوجي فرصة الاندماج في الحياة اليومية لأبناء مجتمع البحث، وهو ما يسمح للباحث بالتوصل إلى فهم كامل للمعاني الثقافية، والإحاطة بالبناء الاجتماعي للجماعة المدروسة. ([[3]](#footnote-3))

ويحمل هذا الأسلوب إشكالا في حد ذاته من قبيل أن الباحث يكون غريبا عن المجتمع الذي يتدارسه، أو أنه غالبا ما يتأثر بمنطلقاته النظرية وموقفه الإيديولوجية، وتكوينه الذهني والنفسي، والتي لا بدّ أن تؤثر في نتائج دراسته، كما قد يبتعد عن الموضوعية لأنه داخل مجتمع البحث، ويغوص في العالم الاجتماعي الغريب عنه.

* **العمليـــة:**

تكون العملية عادة تلقائية وغير مخططة، فهي صيرورة، والصيرورة شيء يحصل في كل مرة، ذلك أن أهم "صفة" في العملية أنها تتكرر نمطيا، وهنا يكون الإثنوغرافي في قلب العملية البحثية والميدانية، ومن أمثلة ذلك، نجد طقس الزواج مثلا حيث يتكرر نمطيا حدوثه كطقس من الطقوس، إذا كان المجتمع على درجة عالية من الوحدة والتجانس، أما في المجتمع المتعدد أو المركب، فتكون ثمة مشكلة تطال هذه العملية، ذك أن لكل طبقة أو فئة طقوسها ونشاطها الخاص بها.

ويقوم الباحث هنا بتسجيل كل ما قام به من أنشطة، وما عايشه من ظروف، وما لقيه من استجابات عاطفية، وأن يفصل بين ما يقوله ويفعله من جهة، وما يرى الآخرون يقولونه ويفعلونه من ناحية أخرى، وهو يتناول أفعال الآخرين وأقوالهم كما لو كانت عديمة التأثر بأقواله وأفعاله هو. ([[4]](#footnote-4))

* **الوصــف:**

حيث تعد أهم خطوة من خطوات المنهج الإثنوغرافي، حيث يقوم الباحث بوصف ما يرى فقط وصفا أمينا وموضوعيا بعيدا عن أهوائه وذاتيته.

وتعد هذه المرحلة شاقة ومرهقة بالنسبة للإثنوغرافي، إذ يعمل على الملاحظة أو المشاركة وعلى التسجيل المباشر في اللحظة ذاتها، ويصبح حاسما أن يسجل بدقة وبالتفصيل كل ما يشاهده ذلك أن طول مدة البقاء في ميدان البحث يضعف الرؤى والأفكار التي تكونت لدى الباحث لحظة الاتصال الأولى بتلك الثقافة التي كانت مجهولة بالنسبة إليه، فالباحث الميداني لا يتعرف على اهتمامات الآخرين، وأفكارهم دفعة واحدة، وإنما يكون ذلك من خلال عملية مستمرة لا تتوقف، لذلك يتعين على الباحث أن يسجل تلك العمليات المتجددة والمراحل المتتابعة، وهنا تمثل المذكرات الميدانية مصدرات متميزا لتسجيل الخبرات والحفاظ عليها بصورتها الأقرب إلى لحظة معايشتها، الأمر الذي يساعد في الوصول إلى فهم أعمق وتدبر أدّق لتلك الخبرات. ([[5]](#footnote-5))

* **التحليــــل:**

يتم في هذه المرحلة جمع المعلومات، والبدء في تصنيفها، ويتم ربط العمليات التي تم ملاحظتها وتسجيلها مع بعضها البعض وعن طريق عمليات الربط هذه، تظهر العلاقات والصلات بين تلك الوقائع والطقوس التي سبق تسجيلها، كما يتم تحليل محتوى تلك العلاقات، كيف يمكن أن تسير، ودرجة الانسجام والتناقض بينها، وكذلك الآثار المترتبة عن ذلك.

وتتلخص خطوات مرحلة التحليل في البدء بكتابة بعض التوصيفات الأولية لموضوعات التحليل الأساسية، ثم الاتجاه بعد ذلك إلى انتقاء، وتوضيح، وترتيب ومراجعة بعض المقتطفات المتعلقة بكل موضوع من المذكرات الميدانية، وصولا إلى تكوين مجموعة من الوحدات المنتظمة موضوعيا لتلك المقتطفات والتعليقات التحليلية عليها، وتنتهي بمناقشة عملية كتابة المقدمات والخلاصات اللازمة لإخراج نص علمي ميداني مكتمل. ([[6]](#footnote-6))

ونظرا لأهمية هذا المجتمع الإثنوغرافي، وما ترتب عنه من دراسات ميدانية، فقد وجدت الكثير من الدراسات الإثنوغرافية التي وصفت ودرست العادات والطقوس لكثير من المجتمعات البدائية، ليتجه هذا المنهج لدراسة المجتمعات الحديثة اليوم، انطلاقا من التراكمية والخلاصات التي أوجدتها تلك الدراسات الميدانية، والتي تشكل تراثا ميدانيا لأي باحث إثنوغرافي يهتم بدراسة واقع وأحوال المجتمعات المعاصرة والحديثة بما تحمله هذه المجتمعات من ظواهر متنوعة، وعلى قدر عال من التعقيد أيضا.

1. **()**- نادر عطا الله وهبة: الأبحاث الإثنوغرافية –رؤيا بحثية جديدة، مجلة رؤى، العدد 10،ص35. [↑](#footnote-ref-1)
2. **()**- عيسى الشماس ، مرجع سابق، ص135. [↑](#footnote-ref-2)
3. **()**- شارلوت سيمون سميث واخرون: موسوعة علم الانسان –المفاهيم والمصطلحات الانتروبولوجية، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009، ص 495. [↑](#footnote-ref-3)
4. **()**- روبرت ايمرسون وآخرون: البحث الميداني الاثنوغرافي في العلوم الاجتماعية، ترجمة: هناء الجوهري، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص72. [↑](#footnote-ref-4)
5. **()**-روبرت ايمرسون وآخرون، المرجع السابق، ص :75. [↑](#footnote-ref-5)
6. **()**-روبرت ايمرسون وآخرون، مرجع السابق ، ص: 337. [↑](#footnote-ref-6)